

الكشاف

" ومن أضل " معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلم أبلغ ضللا من عبدة الأصنام حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر عل تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من دونه جمادا لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة وإذا قامت القيامة وحشر الناس : كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضدا فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم . وإنما قيل : " من " وهم لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة . ويجوز أن يريد : كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها . قرئ : ما لا يستجيب وقرئ : يدعو غير الله من لا يستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها . ونحوه قوله تعالى : " إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة مكفرون بشرككم " فاطر : 14 .

" وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين " .
" بينات " جمع بينة وهي الحجة والشاهد أو واضحات بينات . واللام في " للحق " مثلها في قوله : " وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا " الأحقاف : 11 ، أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا . والمراد بالحق : الآيات وبالذين كفروا : المتلو عليهم فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق " لمل جاءهم " أي : بادروه بالجحود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير إجابة فكر ولا إعادة نظر . ومن عنادهم وظلمهم : أنهم سموه سحرا مبينا ظاهرا أمره في البطلان لا شبهة فيه .
" أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم " .

" أم يقولون افتراه " إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم : إن محمدا افتراه . ومعنى الهمزة في أم : الإنكار والتعجب كأنه قيل : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضى منه العجب وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له والحكيم لا يصدق الكاذب فلا يكون مفتريا . والضمير للحق والمراد به الآيات " قل إن افتريته " على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه

. فلا تقدرّون على كفه عن معاجلتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه . يقال : فلان لا يملك إذا غضب ولا يملك عناه إذا صمم ومثله : " فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم " المائدة : 17 ، " ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً " المائدة : 41 ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا أملك لكم من الله شيئاً " ثم قال : " هو أعلم بما تفضون فيه " أي تندفعون فيه من القدر في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى " كفى به شهيداً بيني وبينكم " يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالكذب والجحود . ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد جزاء إفاضة " وهو العزيز الرحيم " موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا . فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إليهم في قوله تعالى : " فلا تملكون لي " قلت : كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم . فكأنه قال لهم : إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصيح لكم ومدكم عن عبادة الآلهة إلى عباد الله فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه .

" قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين "